

# قصة السبعينات في سورية

بقلم رياض عصمت

## الموضوعات الكبرى والوضع الدنيوي

كتاب القصة الشباب في سورية يقفون في قصصهم على مفترق الطرق في الصراع بين الحب والقمع ، بين انبراءة والشر . لذلك نجد الموضوعات الفلسفية الكبرى ملامح دنيوية محددة لديهم . وان اتخذت صياغتها اساليب شعرية معقدة . الموت يتجسد بالحرب ، الحزن بالاحباط العاطفي ، الخوف بالقمع السياسي ، القلق بالانفصال عن الآخرين وعدم تفهمهم ، والزمن بسقوط الاستار عن وهم او مثال زائف .

## الجسرة في الطرح

اسباب ، في بداياتهم بوجه خاص . اكثر جراءة على طرح المواضيع المحرمة في عرف المجتمع التقليدي . ان لها اغراء شديدا يجذبهم ، والنشر منسكلة قائمة امامهم على اية حال . لذلك فان النابز الثلاثي فيما يتعلق بالدين والجنس والسياسة ينهار امام حرص الشباب على خرق كل المحظورات ، والتعبير بجراءة عما يجيش في نفوسهم من مشاعر ، وعما يضطرم في مجتمعهم من مشاكل وهموم .

## الحرص على الاسقاط

ان كتاب القصة الشباب في حرصهم على تصوير المجتمع والعصر والجيل بكل ما يملكون من ادوات وطموح ، ينحون نحو استخدام التاربخ او الاسطورة ، ملفين ما يوجد في كل منهما من مجال درامي خصب ، مكتفين بما يمنحانه من فرصة للترميز والتمويه مع الاسقاط . اما الدافع الآخر الاقل اهمية ووبروزا ، فهو اللجوء الى التعميم والتجريد من اجل اكساب مواقف قصصهم وشخصيات ابطالهم بعدا فلسفيا خالدا . ان الوضع الطريف لاحياء شخصية تاريخية في العصر الحاضر

اذا كانت « السمة المشتركة بين جميع الفنانين والكتاب المرموقين في العالم الراسمالي هي عجزهم عن الملائمة بين انفسهم وبين الواقع الاجتماعي المحيط بهم » ، على حد قول آرنست فيشر ، فان السمة المشتركة بين الكتاب الشباب العرب هي ايضا : الاغتراب . هذه الظاهرة ، بشقيها الاقتصادي الطبقي والنفساني الفلسفي . نتجة عن الحيرة الزمنية في اتباع نهج سياسي محدد على صعيد الوطن العربي او حتى في قطر من أقطاره . وعن ضياع الشعور بالحرية والشعب والامان .

وازمة الاغتراب تفقد الكتاب الشباب عادة اما الى بكائية رثائية مستسلمة ذات طابع فرداني ، واما الى مواقف الرفض والاحتجاج والثورة . الفاصل بين النوعين دقيق ، وكثيرا ما يختلطان حتى عند الكاتب الواحد . ان للاغتراب هنا بعدا نفسيا اجتماعيا ، يبقى حتى او الفينا الجانب الميتافيزيقي منه ، او غيبنا اسبابه حسب التحليل الماركسي ( اي علاقة المنتج بأداة الانتاج وبالساعة ) . انه بشكل او باخر عدم تكيف حاد مع المجتمع ، وبحث عن البراءة والعدالة المفقدين .

## سمات المضمون

اذا كانت ازمة الاغتراب هي المحور الاساسي لادب الشباب عموما ، فان هناك سمات مشتركة محددة تتعلق بالمضمون او المضامين المشتركة في قصص الكتاب الشباب في سورية ، يمكننا ان نستخلصها من خلال دراستنا للاتجاهات والمدارس المختلفة . ونحن نستقي ذلك من قراءة متأنية لمعظم ما في خارطة القصة القصيرة في سورية ، مركزين على الاضافات التي يتميز بها كتاب جيل السبعينات عن سبقهم .

عام ، واقعيته اذا استهدف الواقعية على وجه الخصوص .

\*\*\*

### خارطة قصة السبعينات

لا نستطيع ان نعتبر قصة السبعينات في سورية صرحا متنادا لوحده ، او موقفا منافضا لتجربه الاجيال السابقة في القصة . انها بالاحرى على تباين اتجاهاتها الفكرية ومدارسها الفنية امتداد للمحاور الثلاثة الرئيسية التي يتربع على مقدمة كل منها : عبد السلام العجيلي ، سعيد حورانية ، و زكريا نامر . لكن الحقيقة هي ان ابرز كتاب القصة الشباب يمزجون هذه المؤثرات ، ويضيفون اليها مصادر نفاثتهم وتجاربهم الحياتية ، ليخرجوا اليها بشخصيات متميزة خاصة . هؤلاء لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة . اما الآخرون . فالطريف انهم يستسهلون على ما يبدو فن القصة القصيرة ، ويخالون انفسهم قادرين على كتابتها بنجاح ، حتى اصبح عددهم باعثا على الدهشة ، خصوصا مع الزايد المرضي للصفحات الثقافية في الصحف والمجلات .

رغم هذا التورم في الكم ، فبالكاد نجد اليوم ندينا في سورية ملامح حركة قصصية شابة ، رغم ان هناك بعض البشائر التي تدعو للتفاؤل . اذن ، ففي العشر سنوات الماضية لم يكن هناك خط تصاعدي ، ولم يكسب يلمع في القصة القصيرة خلافا سوى كانبين او ثلاثة . حتى نضجت شجرة القصة في السبعينات واعطت ثمارا قليلة جيدة ، كثيرة هي الثمار العظنة التي سقطت . ان اقلاما شابة عديدة شعت في البداية ثم خبت ، وبنابيع عديدة توقعنا منها الخير والعتاء ثم جفت ، لكن هذا لم يكن غابا ذنب الشباب او نتيجة ضعف موهبتهم ، بل كثيرا ما كان ذنب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المحيطة . ان كثيرا من الاقلام غير الموهوبة على الاطلاق ما زالت تنشر وتلمع وتسلط عليها الاضواء ، في حين تظل بعض المواهب الحقيقية الاصيلة للاسف الشديد في الظل .

اذا اسنمرضنا خارطة القصة الشابة بتآن ، لوجدنا ان الازدهار الذي اصاب قصة السبعينات ، وسرعة تخطي القصاصين الموهوبين ( وحتى غير الموهوبين ) لحواجز النشر ، يعود الى الجيل الادبي الذي ولد بعد هزيمة ١٩٦٧ : ( عادل محمود - نذير وكيل - سليم ابراهيم عبود - محسن يوسف - محمد كامل الخطيب - عبداللله ابو هيف ) . بعض هذه الاسماء توقف فعليا عن الكتابة لاسباب شخصية او موضوعية ، وبعضها ما زال يكتب دون تطور ، وقليل منها مستمر . وما لبثت القائمة مع بدايات السبعينات ان اتسعت فاضيفت اليها اسماء : ( ابراهيم الخليل - خليل جاسم الحميدي - توفيق الاسدي - وليد نجم - عبدالاله الرحيل - احمد داوود -

والملاسات الاتهامية التي تنجم عنه ، حيلة ورنها الشباب عن زكريا نامر . نادرا ، ونادرا فقط . ما استطاع كاتب شاب ان يتمثل التاريخ والاسطورة باصالة وعمق .

هذا ما نجده فقط عند محمود عبدالواحد ، وربما في قصص متفرقة قليلة لآخريين .

### النزعة الفردية الرومانسية

رغم ان تجربة انجيل الذي سبق قصة السبعينات ارسى اساسا متينا للواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية والتعبيرية ، وكلها مدارس تعتنى بالاجتماعي ، وبما يمكن تعميمه من التجربة الذاتية الانسانية ، رغم ذلك فان كثيرا من قصص الشباب تنطلق من معاناة فردية ، وكثيرا ما تلبس قسرا لبوس العام والطبقي والثوري . ان الاتجاه المادي المسيطر على المجتمع بالمفهوم الكومباردوري يشعر الشباب بان كل شيء يتحول الى سلعة وتجارة ، لذلك تثور لديهم النزعة الرومانسية لمواجهة ذلك ، اضافة الى رغبتهم في التعبير دفعة واحدة عن كل ما يجيش في انفسهم وعقولهم . كما ان التغيرات السريعة الفجائية على صعيد الاحداث السياسية في المنطقة ، جعل الكتاب الشباب يلهثون وراء الومضة العابرة ذات الطابع الانسي والعادي ، رغم انهم يفعالون ذلك باشكال بعيدة عن الواقعية الفوتوغرافية غالبا .

### القلق وقلق الكابوس

ان كثيرا من الملاحظات التحليلية السابقة تقودنا الى ان المواجهة مع الواقع ، او حتى الهرب منه ، يستدعي اللجوء الى الاحلام . لكن شعور الاغتراب والقلق والاحباط وانقمع تسم القصص بجو الكابوس . انه غالبا ما يكون كابوسا مصنوعا ، يهدف بشكل منظم ومدرّس ( وهذا عيبه ) الى الاسقاط .

### الوعي الطبقي .. والمراهقة اليسارية

على اختلاف مضامين الكتاب الشباب واشكسال تعبيرهم ، فانهم يدعون جميعا استهداف القصة الثورية الاشتراكية . انهم جميعا يدعون الوعي الطبقي . وصحة الحكم السياسي ، خصوصا وان معظمهم ينطلق من تعميمات . ( لا استثنى من هذا سوى قلائل جدا يكتبون بهدف انساني بحت ) . ان بعضهم يملك دون شك - وبجدارة - اوعي الطبقي السليم ، لكن بعضهم يعاني من التشتت والمراهقة اليسارية ، كما ان بعضهم الآخر يملك وعيا نظريا لا يجيد توظيفه في قالب فني سليم . لكن الجزء الاكبر من قصص الشباب ينتمي على اية حال الى الموقف الاشتراكي ، لكنه في احيان عديدة يفتقر الى النحس القومي الاصيل ، وينحو نحو النموذج ، او نحو اصطناع شخصية من خلال الاسس النظرية وحدها . والادب الشاب يفقد في هذه النقطة كثيرا من اقناعه بوجه

الإجناس والفنون عند المهويين ، تصبح عند انصاف المهويين عيبا . انها تقترب من الفن الجديد اكثر من اقترابها من القصة القصيرة . ابرز تلك التأثيرات تأتي من السينما ، فالقصة السيناريو أصبحت موضة - في اقصية - كما أصبحت « القصة اللوحة » و « القصة الكونشرتو » من قبل موضة الستينات على يد نواف ابو الهيجاء وويد اخلاصي . ان بحث الشباب عن صوتهم الخاص الجديد يجب أن ينبع من حاجة وليس من ترف ، لذلك فالتجريب من اجل التجريب ( ان لم يكن مدعوما برؤية عميقة للواقع ، وثقافة متنامية حول وسائل التعبير ) يصل بالكاتب الى طريق مسدودة . ان اقتباس وسائل تعبيرية من فنون اخرى بقصد زيادة التواصل والتأثير ، يجب الا يقود الى اشكال هجينة لا توصل للقارئ اي شيء ، ولا حتى احساسا جماليا محضا .

اضافة الى مسألة التأثيرات ، فان القصة القصيرة كثيرا ما نختلط بهاخاطرة ، لعدم قدرة الكاتب الشاب على التفريق التقني بين التجديد في القصة وبين اللاقصة . هذا ما ازكت ناره سهولة النشر ، واصبح الى جانب النزعة الشعرية الخالصة واللاقصية على الاطلاق معظم ما يشكل الحركة القصصية في صحفنا ودورياتنا ، انها كتابة نثرية - ( جميلة احبانا ) لكنها خالية من الحدث والشخصيات ، ومن الترابط والاقناع ، وعدد من اسماء الذين ذكرناهم لا يكتبون غيرها .

هذا على كل حال ما لا يمكن تعميمه ، ففي قصص الاسدي استفادة ايجابية من السينما ، وفي قصص عادل محمود نفس شعري ، وفي قصص عبدالواحد تأثيرات ملحمية اسطورية ، وفي قصص حسن م . يوسف حوار مسرحي . وفي قصص سميرة بريك صور تشكيلية وشعرية . لكن جميع هذه المؤثرات عند هؤلاء تصب في مجرى القصة القصيرة ، فترفده وتفنيه .

تسيطر على كثير من محاولات الشباب القصصية نزعة الى التجريد ، والى الغاء بعد الواقع من القصة انهاء نهائيا . ومثكلة هذا النوع ان الرمز فيه له بعد احادي الجانب ، يجعله استعارة ذات اسقاط محدد ، اكثر منه رمزا له ابعاد فنية متدرجة تتصاعد به من الحدث اواقعي الى آفاق الدلالات الاخرى . ان هذه الحلول الشكلانية هي هروب من الرقابة من جهة ، وهروب من الضعف الفني من جهة ثانية .

جزء كبير من قصص الشباب يهتم برصد الجانب الخارجي من الحياة ، منيحاً بانظاره عند الجانب الداخلي . ان القصة بالتالي تفتقر الى اللمسة الانسانية ، وتكرس كل جهدها لتحقيق نظرة بانورامية ( تسجيلية او ملحمية ) بدلا من الفوص في اعماق الشخصية الانسانية ، والتعبير عنها . ان القصة تفقد عنصر توازنها وتلقها في رصد الذات والموضوع ، وفي تصوير كل منهما على ضوء الآخر .

وديع اسمندر - سحبان سواح - هدى الفيل - نبيل جديد - نيروز مالك - سميرة بريك - محمود عبدالواحد - حسن م . يوسف - رياض خليل - عادل حديدي - جميل حتمل - وانل السواح - عميد درويش - وليد معماري ( . . ) - وارجو الا اكون قد اغفلت احدا ممن حققوا استمرارية ومستوى معقولين . واعتقد ان بعضا منهم يتقدم بسرعة وجدارة . واحب ان اشير الى تميز وليد معماري ويلي صنايا سالم وجميل حتمل في كتابة قصص للاطفال ، هي نقطة ينفردون بها ، وربما كانت لبعضهم مجال تخصص مهم وواعد . بينما احب ان اشير الى تميز ( محمود عبدالواحد ، هدى الفيل ، ابراهيم الخليل ، حسن م . يوسف ، وسميرة بريك ) ، فكل منهم في مدرسته واتجاهه يمثل اضافة وتجديدا .

ان سهولة فن القصة القصيرة في النظرة الاوتى تتمخض عن صعوبة بالغة ، ما تلبث ان تبتلع التجارب الغضة . انه فن العصر ، الفن الذي يستفيد بوفرة السينما والمسرح والشعر والموسيقا والتصوير . لذلك ، فما اكثر الذين يفدون اليه من الفنون والآداب الاخرى ، وما اكثر الذين يبدون به ، وما اكثر الذين يفشاون وينسحبون . ان القصة القصيرة والمسرح اليوم هما « السهل - الممتنع » ، هما « الحدسي - الحرفي » . وهذا ما كان على كتاب اقصية الشباب ان يكتشفوه قبل ان تلمع بعض الوجوه من ادب السبعينات .

\*\*\*

## سمات الشكل

رغم ان بعض القصاصين الشباب في سورية دابوا على ان يحتدوا حدو بعض اسافين ، كتامر ، والعجيلي . وحيدر ، الا ان مجمل الحركة القصصية الشابة اخذت تفهم الواقع وتصوره بشكل بعيد عن الفوتوغرافية التي كانت سائدة في جيل الرواد بوجه عام . ان واقعية الشباب هي تارة موضوعية تسجيلية ، وتارة واقعية درامية ، لكنها دائما في الاعماق غير محايدة . هذه الميزة لها حد آخر ، اذ ان بعض الكتاب الشباب في سعيهم لتأسيس اتجاه واقعي اشتراكي في نفس الوقت الذي يسعون فيه الى كتابة قصة حديثة الطراز ، وقعوا في افتعال الدعائية ومسح الواقع على قياس النظريات . فبينما تتألق واقعية حسن م . يوسف ، وتنساب واقعية توفيق الاسدي التسجيلية باقناع امامنا ، نجد كتابا اخرين يفتقرون لمهبة التصوير البارع ورسم الشخصيات الحية . ان هناك مسحة من الشاعرية على اية حل في معالجة الواقع بشتى صوره ، الجميل منها والقبيح ، تكسو قصص الشباب في سورية .

ان كثيرا من قصص الشباب ، خصوصا البدايات منها ، ليست قصصا على الاطلاق ، وانما هي خليط من الاجناس الادبية والفنون الاخرى . ميزة الاستفادة من تلك

الدفاع عن الحرية لا بد ان يكون متضمنا في قصة ذات حدث مترابط مقنع يوحد ما بين الذات والموضوع ، وربما يستفيد من آتاريخ والاسطورة والشعر . لكننا للأسف نواجه بنماذج عديدة تتحرى البساطة والواقعية ونصور شخصيات كادحة ، لكنها نفع في افتعال رسم الشخصية وحريةها ضمن مواقف الحياة ، كما نفع في منكله اصعب وادف هي ان القصة كثيرا ما يخرج مجرد خبر لا قصة ، الامر الذي يحدده الناقد د.م. فورستر بدقه . هذا شأن بعض قصص محمد كامل الخطيب ، توفيق الاسدي ، ورياض خليل . اما التجريب بلا هدف واضح ، ومحاولة التوصل الى صيغ موجزة جدا للقصة ، فانه ما نجده في بعض قصص نبيل جديد ، عبدالله ابو هيف ، وجميل حتمل . بينما نجد الاسقاط القسري والتضمين السياسي لدى وديع اسمندر ومحسن يوسف . اما افتعال الشعرية والموقف الطبقي فنجدهما لدى عادل حديدي وسحبان السواح باسراف . بينما نجد الواقعية في صورنها التقليدية عند وليد نجم وعبدالله الرحيل ووائل السواح مع فوارق البيئة والميزات الفنية الخاصة لكل منهم .

الاسماء الاخرى في خارطة القصة السورية الشابة اعتبرها اما متميزة ، بحيث تخلصت من كثير من العيوب المذكورة ، واما غير واضحة المعالم بعد ، واما انها تستخدم بعض سمات القصة الشابة بنجاح واقتصاد يجعلها مباشرة واعادة .

ان مجمل انصورة التي تشكلها قصص الشباب على اية حال صورة ايجابية جديرة بالتوقف والدراسة . لقد استطاعت قصة السبعينات - بعد عطاءات الجيل المخضرم قليل العدد التي كانت كالنحت في الحجر - استطاعت ان تصبح مضيئة ، واعادة ، ومتجاوزة .

ان صوت القاص الشاب يتوحد احيانا كثيرة مع صوت بطله المحبط او المفترق ، بحيث يمثله ويعبر عنه ، ويفصح عن انفعالاته وآماله . وكم هو جدير ان يتناول اندارسون من خلال علم النفس وعلم الاجتماع ومن خلال السياسة والاقتصاد ، الاسلوب الذي يجعل ادب الشباب في بلدنا ينسب في مجرى الاغتراب ، ولماذا يسيطر على المشكلات المطروحة في قصصهم الطابع الفردي ، وتنبع همومهم من القمع العشقي والقهر السياسي . ان الجواب الفني المبدي لدينا هو ان قصة السبعينات تقف بمعداة حقيقية وبأصالة وصدق شاهدة على العصر العربي الحاضر .

دمشق



يمكننا ان نعيد اسباب هذه الظاهرة الى ثلاث نقاط: الاولى هي نزعة انكاتب الشاب لقول كل شيء ، دفعة واحدة ، والثانية هو طغيان المادة في عصرنا على الروح ، والثالثة هي سرعة التغيرات السياسية كل هذا اضافة الى عنصر السهولة في رصد الموضوع ، وذلك الخوف من ان تتحول اذاتية الى فردانية ، جعل القصة القصيرة اشابة تفغل تصوير شخصيات انسانية تعيش حدثا دراميا ، وتفغل تصوير علاقات واقعية ونفسية تتيح لنا بالتالي كنف البنية الاجتماعية والاقتصادية للبيئة ككل .

هناك نزعة شعرية في اسلوب معظم القصص القصيرة التي يكتبها الشباب . هذه النزعة الشعرية هي اسمة التي تميز جميع الاعمال الادبية الهامة ، وتعطيها عمقا اضافيا وابعادا جمالية ، لكن هذه النزعة عند بعض الشباب تصبح شكلانية تزويقية مفتعلة . ان كثيرين منهم - كما يرى شوقي بغدادي محقا - يكتبون انفصا بدافع من ازمة مواجهة الشاب اتريفي البريء لظروف مدينة استهلاكية ساحقة . ان الفارق بين عنصر الذاتية (الضروري) في الكتابة ، وبين عنصر الفردانية (المرضي) فارق كبير . الشباب عموما يخلطون بين العنصرين ، ويبدو ان بعض النقاد ايضا يفعلون ذلك . ان كل ما لا يمكن تعميمه او الافادة منه كنموذج او كرمز - حتى ولو كان واقعا - هو فردي . اما اللمسة الشعرية واطفاء الاحساس الذاتي على التجربة الموضوعية فانهما يغنيان العمل الفني ، على عكس ما يرى الناقد يوسف اليوسف الذي جره خطأ استخدام بعض الشباب لشعرية القص الى تعميم مفلوط . ان القصة انقصيرة عند جميع الاجيال تقترب منه الفنون الحسية كالشعر والموسيقى والرسم . ان جزءا لا بأس به من القصة يعكس « الذات المتضخمة » . هذا ليس عيبا ان استطاعت هذه الذات ان تكون غنية ، او استطاعت ان تكون شاهدا للعصر والمجتمع . ان الانطلاق من الذات هو اساس الشعرية الحقة في القصة . هذا ما يمنح العمل الادبي حرارته ، ويجعل منه - على حد قول مايكوفسكي عن المسرح - « ليس مرآة عاكسة ، وانما عدسة مكبرة » .

\*\*\*

ان الاغتراب ، ورفض الواقع الفاسد (اجتماعيا او طبيا ، والذاتية في التعبير عن الموضوع ، والشعرية في الاسلوب ، كلها سمات مضمونية وشكلية تغلب على قصص الشباب . كل هذه السمات ، اضافة الى نزعة انكاتب الى التجديد وجرأتهم في التصدي لمواضيع محظورة . يمكن ان تتحول من ميزات رائعة الى سيئات مدمرة . هنا النقطة التي يجب ان يحذر الكتاب الشباب من الوقوع فيها ، وكنا نستطيع ان نرى كيف نجت قصص الموهوبين من أهشاشة ، من المباشرة ، من الاستعارة الفجة ، من الشعرية المفتعلة في الاسلوب ، من المراهقة اليسارية ، ومن الفردانية في الطرح الطبقي او القمع العشقي . ان الموقف الطبقي او